كلاسيكيات الأدب صنعها المولعون بها ولا متعة في قراءتها

أرنولد بينيت يكشف عن كيفية ولادة الذوق الأدبي

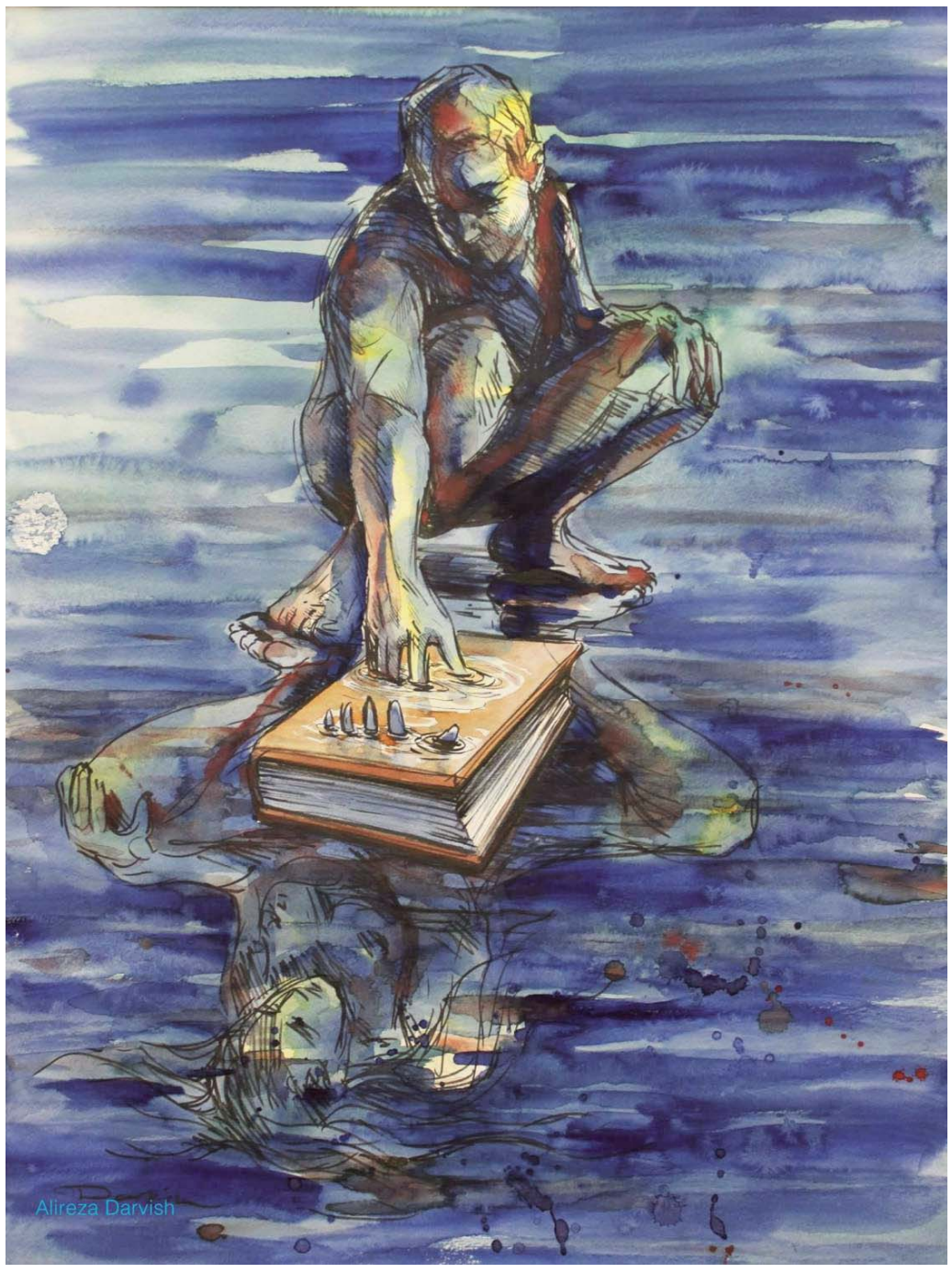

الذوق الأدبي ليس موهبة (لوحة للفنان علي رضا درويش)

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

يمكن إدراج كتاب "الذوق الأدبي؛ كيف يتكوّن: مع توجيهات وإرشادات مفصّلة لجمع مكتبة أدب إنكليزية متكاملة" لأرنولد بينيت (1867 – 1931) وهو صحافي، وروائي، وكاتب في مختلف مجالات الأدب، وناقد أدبي، من المملكة المتحدة، في الكتابات التي تتحدث عن العلاقة الإشكالية بين القارئ والكتب.

يدرس الكتاب بطريقة طريفة ما يبحث عنه القارئ في الكتب، وكيف يسعى المؤلف إلى جذب قارئه، وإن كان معظم الكتابات لم تتوقف عند مفهوم الأدب، وذائقة هذا الجمهور؟ أو بمعنى أدق، ما الشيء الذي يدفع القارئ إلى الاهتمام بالأدب؟ وهو أمر ينبغي أن توجه إليه الأقلام.

منافستو القارئ

عنوان الكتاب، الصادر مؤخرا بترجمة دلال الرمضان عن منشورات تكوين بالكويت والرافدين بالعراق، طويل نسبيًا، وينقسم إلى قسمين؛ الأول، عن تعريف الذوق الأدبي وكيف يتكون، والثاني، أشبه بمنافستو للقارئ، وهو موجه للقارئ الإنكليزي في المقام الأول. وهو ما يستدعي سؤال ما حاجتنا إلى ترجمة كتاب، يتوجه إلى قارئ معين، ويذكره بالاسم في عنوانه؟

يتوزع الكتاب على أربعة عشر فصلا، تشغل الفصول العشر الأولى منه، اهتماما كبيرا بالقارئ، وما يتعلق بالكتابة والكتاب. أما الفصول الأربعة الأخيرة، فقد أوقفها المؤلف لنصائح تتعلق بكيفية تكوين مكتبة باللغة الإنكليزية. يسعى المؤلف منذ البداية إلى إعادة صياغة مفاهيم خاطئة، تتعلق بالأدب والذوق الأدبي، ومن ثم نراه يتحدث باحترافية وببساطة عن هدف الأدب وماهيته، وانعكاساته على الحياة اليومية. ويعتبر هذا هو الجانب المهم في الكتاب.

> خشية على القارئ من الصدمة ينصح المؤلف عند إعادة طباعة الكلاسيكيات بأن توضع المقدمة النقدية في نهاية الكتاب

فيشير إلى أن الغالبية العظمى من الناس يعتقدون بأن "الذوق الأدبي موهبة راقية تضفي عليهم المزيد من الكمال لدى بلوغها، وتجعلهم أكثر توافقا مع المجتمع، الذي ينتمون إليه" ويُخطِئ المؤلف مَن يظنون هذا الاعتقاد، فلا الأدب تسلية، ولا الذوق الأدبي موهبة. فالأدب عنده هو "شيء أساسي لاغنى عنه لتحقيق العيش المتكامل لحياة الإنسان". كما أن مشروع الذوق الأدبي ما هو إلا تعلّم كيفية الاستخدام الأمثل لهذه الوسيلة. والشيء الأساسي لعملية تكوين الذوق الأدبي، يتمثّل في الاهتمام الحقيقي بالأدب. فاستمرار اهتمامك بالأدب سيصل بك إلى أقصى درجات البهجة.

كما أن صانعي الأدب هم "أولئك الأشخاص الذين شهدوا وشعروا بالمتعة الرّائعة لهذا الكون وأعظمهم، هم ذوو الرؤية الأشمل والإحساس الأقوى والأعمق". ويرفض تماما الآراء التي تربط بين الأدب وملء أوقات الفراغ، بل هو إيقاظ النفس البشرية ودب الحياة فيها وتعزيز القدرة على الاستماع والعطف والإدراك. فالهدف الأساسي للأدب، هو تغيير علاقة الفرد بالعالم بشكل كامل ليدوم تأثيره هذا على مدى اليوم كله، وليس لمدة ساعة واحدة فقط.

يتطرق الكاتب إلى مسألة خطيرة كانت موضع جدل من قبل، تتمثل في كيف لنا أن نتقبّل الكلاسيكيات، في الكثير من النصوص التي يُطلق عليها كلاسيكيات. ويتساءل هل نعزف عن قراءتها لأسباب تتعلق بأسلوبها، أو لافتقادها الجاذبية؟ فمثل هذه الكتابات لا تقدم المتعة التي تتناسب مع شهرتها وصيتها، ومن ثمّ فالقراءة تكون بدافع الواجب لا أكثر.

في الحقيقة إذا كان هذا التصور للترغيب في القراءة، يتناسب مع حقب الماضي، فإنه لا يتناسب مع العصر الراهن، حيث ثمّة سياسة تسويقية تقوم بها دور النشر لترغيب القارئ في الكتاب، كما ثمة طرائق حديثة للترويج لكتاب ما، سواء بكتابة الريفيوهات على مواقع القراءة، أو عمل ملخص له في البوكتيوب، أو باللجوء إلى الإنستغرام الأدبي لتسويق الأعمال. ومن ثم ليس القارئ في حاجة إلى مثل هذه الوسائل البسيطة لترويضه (أو تحفيزه) لأن يقرأ.

مسألة الأسلوب

الكتاب يتبنى المنهج السيوسيولوجي، في دراسة أحوال الناس والقراءة، واهتماماتهم، والكتب التي تشغلهم، وإن كان لا يعتمد على بيانات موثقة، فقط يشير إلى دلالات عامة، ربما لا تقترب من الصدق، إلا أنها دالة على واقع حقيقي. فيستنتج مثلا أن ظاهرة نسيان الأفراد لرواية حققت شعبية ما قبل عشر سنوات، لو سألتهم حول شعورهم نحوها الآن، فإن السبب وراء النسيان يعود ليس لتطور ذائقتهم الأدبيّة، بل لأنهم لم يدربوا أنفسهم على الاعتماد على ذوقهم كوسيلة للاستمتاع الدائم.

ويرجع سبب استمرار شهرة كُتّاب الكلاسيكيات، إلى أن هذه الشهرة صنعتها وساهمت فيها أقلية مولعة بأعمال هؤلاء المؤلفين. وفي رأيه أن اكتساب بعض الكُتّاب للشهرة بعد وفاتهم يعود إلى مثابرة وإصرار تلك القلّة التي لا تستطيع تركه وحيدا وتستمر بتذوق أعماله وشرائها والحديث عنها.

وعن الإرشادات التي يقدمها لقرّاء الأعمال الكلاسيكية، يطالبهم أولا قبل قراءة أي عمل بأن يقوموا بجمع المعلومات المتعلقة بسيرة المؤلف، فيربط بين سير المؤلفين وأعمالهم، فالكتاب ليس سوى التعبير عن مؤلفه. بل يقوم بعرض نموذج توضيحي لكيفية قراءة الأعمال الكلاسيكية متخذا من الكاتب تشارلز لام نموذجا تجريبيا.

من المفاهيم الخاطئة والمتداولة ويقوم بتصويبها المسألة المتعلّقة بالأسلوب، فالكثير من القرّاء يعجبون بموضوع الكتاب، إلّا أنّهم يقدمون ملاحظات حول الأسلوب. فيرى أنه لا يمكن تمييز الأسلوب عن الموضوع. فالكاتب الذي يريد التعبير عن فكرة معينة يستخدم الكلمات الدالة في ذلك، وصيغة الكلمات هي التي تشكّل أسلوبه، وفي نفس الوقت هي محكومة بالفكرة كليا، فلا يمكن للفكرة أن تحيا دون الكلمات.

وخشية على القارئ من الصدمة ينصح عند إعادة طباعة الكتابات الكلاسكية بأن توضع المقدمة النقدية في نهاية الكتاب وليس في بدايته، حتى يضع كاتب الكلاسيكيات بصمته، مهما كانت ضعيفة، على عقل القارئ الخام.

وفي نهاية الكتاب يقدم نصائح متنوعة للقارئ، أشبه بتحصينات للقراءة واستمرارها، والاستفادة منها، كأنْ يقول على سبيل المثال، يجب أن يضع القارئ هادفا آخر وراء القراءة، يتجاوز به الهدف الأساسي وهو الاستمتاع. ثمّ يوصي بضرورة شراء مكتبة، فالقارئ وفقا لتعريفه هو رجل يمتلك العديد من الكتب من بين أشياء أخرى.

في الحقيقة سعيت من عرضي للكتاب أن أجد الفائدة التي يوجهها الكتاب للقارئ العربي، فلم أعثر إلا على فائدة محدودة خاصة ما يتصل بعملية الكتابة. فالكتاب في أصله يخاطب القارئ الإنكليزي، حتى الأمثلة والنماذج التي يقدمها، هي من كلاسيكيات الأدب الإنكليزي، بل إن النماذج المشار إليه كدليل على البدء في القراءة على نحو ما ذكر تشارلز لام، غير متوفرة باللغة العربية، وهو ما يعني غياب الفائدة.

الشيء المهم الذي تكشف عنه مثل هذه الاختيارات في الترجمة، هو غياب المنهجية في الترجمة، وهو ما يتبعه غياب السياسات من وراء الترجمة، فالمترجمون يعملون في جزر منعزلة، محاولات فردية، وليست نابعة عن خطط حكومات أو مؤسسات، تخطط وتبحث عمّا نحتاج إلى ترجمته؟ ومتى؟ وهل كل ما تخرجه المطابع الغربية من أعمال، صالح لنا، ومفيد، ومن ثم يجب ترجمته؟ فكيف لكتاب يخاطب قارئا ويقدّم له دليل القراءة، في زمن كان الاعتماد الأول والأساسي على ترشيحات الكُتّاب، والالتزام بنصائحهم، مقارنة بزمن آخر مغاير تماما عنه، بل معظم هذه الوسائل غير صالحة لهذا الزمن، بل يمكن القول إن الزمن عفى عليها.

من ينتج الأدب بالمغرب

حسن الوزاني
كاتب مغربي

بخلاف الانطباع الذي قد يوهم القارئ بأننا أمام جيش من الكتّاب المغاربة، يبدو مدهشا أن عدد الأدباء الذين صدرت لهم أعمال أدبية خلال قرن بكامله، وهو القرن العشرين، لم يتجاوزوا الستّ مئة أديب، تنحصر إصداراتهم في الألفي عنوان فقط.

وفوق ذلك، سيتأخر ظهور الأعمال الأدبية الأولى إلى نهاية عشرينات القرن الماضي، وذلك مع ظهور أنطولوجيا "الأدب العربي في المغرب الأقصى" لمحمد بن العباس القباج.

وستشكّل امتداداتُ هذا التأخر أحد الإكراهات الأساسية المحدِّدة، سواء، لحجم بنية منتجي الأدب، أو لمستوى إسهامهم طيلة لحظات طويلة من مسارات تطور المشهد الأدبي بالمغرب. إذ لم يتجاوز، مثلا، عددُ الأدباء الصادرة أعمالهم خلال مرحلة الحماية، أربعة عشر أديبا فقط.

وارتبط تأخّر ظهور هذه البنية بامتدادات استمرار البنية التقليدية المحافظة. وهي البنية التي تقوم على حضور وظيفة الفقهاء والعلماء باعتبارها محدّدا أساسيا ضمن مسار إعادة إنتاج الثقافة الدينية المحافظة كمكوّن أساسي من مكونات الحياة الاجتماعية.

واستمدّ هذا الحضور خصوصيتَه من طبيعة اشتغال الفقهاء والعلماء داخل مجال التعليم، حيث منحَ ذلك إمكانيةَ إعادة إنتاج البنية الثقافية التقليدية، وضمان استمرارها كمجال لتكريس الثقافة الدينية المحافظة، ولتثبيت المشروعية الرمزية للنظام.

وهو الأمر الذي تمّ، خصوصا، من خلال الإصلاحات التي عرفتها جامعة القرويين خلال أواخر القرن الثامن عشر، والمنبثقة عن المنشور الصادر من طرف السلطان محمد بن عبد الله.

وفي مقابل ذلك، ستفتح الشروطُ السياسية والسوسيوثقافية الجديدة المساوقة للحظة الاستعمار هامشا لتحول البنية التقليدية. وارتبط ذلك من جهة أولى، بانحصار سلطة العلماء بحكم تغيّر التراتبية الاجتماعية التي كانوا يشغلون ضمنها وضعا خاصا.

وارتبط نفس التحوّل بالتعارض القائم على اختلاف المرجعيات الثقافية والأصول الاجتماعية بين جيل المثقفين التقليدي، والجيل الإصلاحي السلفي، ثم الجيل المرتكز على أفكار الوطنية والحداثة. وهي تعارضاتٌ تجلت من خلال تباين التمثلات الثقافية للأجيال الثلاثة، وأشكال تصريفها على مستوى قنوات الاتصال والأشكال التعبيرية.

وفي خضم هذه التعارضات، عمل الجيل الأوّل على تكريس ثقافته التقليدية المحافظة كشكل من أشكال تبرير اندماجه في إطار سياسة الاستعمار، سواء من خلال إسهامه الفعلي في تثبيتها، أو من خلال صمته و"حياده". وكان على رأس هذا الجيل محمد الحجوي، الذي راكم تجربة علمية ومهنية كبيرة.

وبمعزل عن هذه الحالة، سيلجأ الجيل التقليدي، على مستوى تصريف أفكاره وتبرير مواقفه، إلى الزوايا وإلى مجموعة من المؤسسات التعليمية كجامعة القرويين، وذلك بشكل ينسجم مع بنية ثقافته الشفوية ومع طبيعة ثقافة متلقيه. وإن كان آخرون اختاروا الارتماء، بشكل مجاني، في حضن الدعاية للاستعمار، حيث واظبت جريدة "السعادة"، وهي لسان الاستعمار الفرنسي، على نشر قصائد لشعراء مغاربة تحتفي بالاستعمار الفرنسي. ومن بينها، على سبيل المثال، قصيدة لمحمد بوجندار عن ترقية الجنرال ليوطي بعد الحرب العالمية الأولى!

وفي مقابل ذلك، تأسست تصورات الجيل الثاني، الذي يمثله على سبيل المثال، أبوشعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي، على الدعوة إلى الإسلام الأصلي القائم على القرآن والحديث باعتباره لا يتعارض مع التطور.

بينما ارتكن الجيل الثالث إلى الوعي بأهمية تمثل ومعرفة الثقافة الغربية في إطار مسار مواجهة الاستعمار، سواء من خلال اللقاء المباشر بها، أو من خلال وساطة الثقافة المشرقية الجديدة.

وبذلك، سيحقق هذا الجيل هامشَ اختلافه من خلال استثمار مكونات بنية النشر والطباعة، وإمكانيات التداول المتوفرة من خلال الصحافة والمجلات، وذلك بالإضافة إلى قنوات التواصل التقليدية المتجلية في المؤسسات التعليمية والمجالس الأدبية. كما سيختار الجيل نفسه الكتابة الأدبية كشكل من أشكال تحقيق وطنيته.

وبذلك، سيشكل هذا الجيل النواة الأساسيةَ لحركة نشر الأدب بالمغرب حينها. وذلك من خلال توقيعه للأعمال الأدبية الأولى، مثل أنطولوجيا "الأدب العربي في المغرب الأقصى" لمحمد بن العباس القباج، وديوان "أحلام الفجر" لعبدالقادر حسن، وسيرة "الزاوية" للتهامي الوزاني، والمجموعة القصصية "وادي الدماء" لعبدالمجيد بنجلون، بالإضافة إلى مسرحية "على عاتق الشباب" للحسين أفيلال.

> الكتابة الأدبية بالمغرب ما انفكّت تبحث عن الحداثة، لكن مفهوم الجيل انتهى مع ظهور وسائل التواصل الحديثة

بينما سيمثل ثقل تأخر ظهور بنية منتجي الأدب المغربي الحديث محددا أساسيا لواقع المشهد الأدبي الراهن. ولعل من علامات ذلك انحصار إنتاج نصف عدد الأدباء المغاربة في الكتاب الواحد. وهو الأمر الذي ينتظم في إطار ظاهرة الانقطاع عن الكتابة، وذلك من خلال امتداداتها المتجلية، سواء في الانقطاع النهائي عن الكتابة، أو في الصمت العابر، أو في الانتقال إلى حقول معرفية أو علمية أخرى.

وبالطبع، ستجري مياه كثيرة تحت الجسر، وستعرف المراحل اللاحقة تطورات عميقة على مستوى الكتابة الأدبية بالمغرب، في إطار بحثها المستمر عن حداثة مفترضة. غير أن مفهوم الجيل، على الأقل كما نحته عالم الاجتماع الفرنسي روبير إسكاربيت، باعتباره يحيل على مجموع الكتاب ذوي الأعمار المختلفة، والذين يحتلون المشهدَ الأدبي خلال فترة معيّنة، سيصاب بالعطب مع ظهور وسائل التواصل الاجتماعية، حيث صار المشهد الأدبي أزرق، فسيحا، يحتله من يشاء، كاتبا حقيقيا كان أو مزيفا.

انتهت ظاهرة الأجيال الأدبية (لوحة للفنان تحسين الزيدي)